هوامش حول المسألة الثقافية

 بقلم

 أ.د. إبراهيم ابراش

كثيرا ما تصلني رسائل إلكترونية تطلب توقيعي على بيان للمثقفين حول قضايا سياسية ومجتمعية فلسطينية وعربية، ومن خلال نظرة سريعة على الأسماء الموقِعة على بيان" المثقفين" أجد فيها أسماء من كل أطياف المجتمع وفئاته من أطباء ومهندسين وتجار ورجال أعمال وكُتاب وصحفيين ووزراء وأعضاء برلمان...إلخ؛ الأمر الذي استوقفني ودفعني لتحيين؟ للوقوف عند بعض ما دار من جدل ونقاش حول تعريف الثقافة والمثقف.

قبل الاستطراد حول موضوع المثقف لا بأس أن نعرف باختصار مفهوم الثقافة" culture " باعتبار المثقف نتاجاً وحاملا لها، ومعبرا عنها، وفاعلا فيها تغييرا وتحديثا، أو هكذا يجب أن تكون العلاقة بينهما، ثم نُجمِل خلاصة موقفنا بتبيئة؟ من خلال واقع الثقافة والمثقفين في المجتمعات العربية وعلاقته بالسلطة.

أولا - تعريف الثقافة والفرق بين الثقافة والحضارة:

الثقافة بالمجرد تعني أنماط السلوك والتفكير والمعيشة من مأكل ومشرب ولباس وعادات وتقاليد وطقوس دينية التي تميز مجتمعا عن غيره من المجتمعات، أو كما تم تعريفها في المؤتمر العالمي حول السياسات الثقافية في مدينة ميكسيكو 1982 فهي كل السمات المادية والروحية والعاطفية التي تتيح لمجتمع ما التميز عن غيره من المجتمعات، أو تتيح لفئةٍ ما التميز بهذه السمات عن غيرها من فئات المجتمع الواحد.

ومما نود بيانه في هذا المقام هو أن الجزء الأكبر من الثقافة يأتي بالاكتساب ومن خلال التنشئة الاجتماعية والسياسية، تدرُجاً من البيت والمدرسة إلى وسائل الإعلام والأحزاب، دون تجاهل ما يسمى التراث الثقافي. أيضا في داخل الفضاء الثقافي للمجتمع الكلي قد توجد ثقافات فرعية وثقافات مضادة ، كما يمكن الحديث عن ثقافة سياسية وثقافة دينية وثقافة اجتماعية وثقافة المقاومة وثقافة الخنوع وثقافة الحب وثقافة الشك وثقافة تتعلق بالجندر الخ .

إلى حين من الزمن كان مفهوم الثقافة يتداخل مع مفهوم الحضارة" civilization ”، وذلك قبل أن يتم التمييز بينهما؛ فالحضارة تذهب إلى الجوانب المادية في حياة المجتمعات من عمران وتكنولوجيا إلخ. وعليه يمكن تلمس الفرق بين الثقافة والحضارة بالرغم من أن بعض الأنثروبولوجيين الأوائل لم يفرق بينهما.

وقد يعود تداخل المصطلحين عند البعض من منطلق أن الحضارة مرحلة متقدمة من مراحل التطور الثقافي أو المظهر المادي من ثقافة المجتمع ونتاج لها؟.

 ومن هنا يمكن القول بأن لكل مجتمع- بدائيا كان أم حضاريا- ثقافته الخاصةَ به، ولكن ليست كل المجتمعات متحضرة راهنا، فنحن اليوم نتحدث عن حضارة الغرب واليابان مثلا، وتحدثنا عن الحضارة العربية والإسلامية من قبل، ولكننا اليوم نتحدث عن الثقافة العربية والإسلامية وليس الحضارة العربية والإسلامية؛ فهذه الحضارة كانت في الماضي عندما كان العرب والمسلمون متفوقين على غيرهم، أيضا نتكلم بصيغة الماضي عن الحضارة الفرعونية وحضارة بلاد الرافدين وحضارة الانكا وحضارة المايا الخ .

ولأن الموضوع إشكالي ومعقد فإن التمييز بين الثقافة والحضارة قد يؤدي للانزلاق نحو اشتقاق تعريفات جديدة كالقول بوجود مثقف متحضر ومثقف غير متحضر حسب المستوى الحضاري لوطن المثقف، أو بصيغة أخرى نقول: إن المثقف مثقف بمعايير مجتمعه، وعلى هذا الأساس فإن المثقف في بلد عربي أو إفريقي وفي بعض ضروب الثقافة قد لا يعتبر مثقفا تلقائيا في بلد أوروبي أو في اليابان والصين .

ثانيا- بالنسبة لتعريف المثقف:

درءا لسوء الفهم وحتى لا يفسر بعض الناس قولي حول التباس تعريف المثقف بأنه إسقاط على صنف محدد من السابق ذكرهم في مقدمة المقال سأضرب مثلا على نفسي، فهل أنا مثقف لكوني أكاديميا؟ وهل كل أكاديمي مثقف؟. وقياسا على ذلك هل كل صحفي أو إعلامي أو كاتب أو مطرب أو ملحن أو سياسي أو مدير مركز أبحاث... إلخ يكتسب صفة المثقف تلقائيا ؟وهل المثقف مهنة أم دور مجتمعي لتحقيق هدف ذي صلة بالثقافة الوطنية وهموم المجتمع العامة من منطلق الوعي باللحظة التاريخية التي تمر بها الأمة أو الوطن؟.

ومن يحدد دور المثقف في المجتمع ؟وهل المثقف هو الذي يصنف نفسه مثقفا ويحدد لنفسه دورا؟ أم المجتمع هو الذي يصنفه مثقفا ويمنحه الدور؟ وهل هناك مرجعية مجتمعية أو سياسية محددة تمنح لقب المثقف؟ وهل من فرق بين المثقف والكاتب والأديب والفنان والمفكر والعالم والعلامة والفيلسوف إلخ؟. وهل صحيح أن المثقف يفقد صفته ودوره كمثقف إن انخرط بالعمل السياسي الرسمي؟وهل المثقف لا يكون كذلك إلا في حالة تموقعه كمعارض للسلطة السياسية؟.

بالرغم من تعريجي في كتاباتي أكثر من مرة على الثقافة والمثقفين وقراءاتي المتعددة لمفكرين ومنظرين كتبوا حول الموضوع فإنني أجد نفسي دوما في حالة عدم اليقين في ضبط مصطلحي الثقافة والمثقفين؛ وقد يكون سبب ذلك أن مفهوم الثقافة والمثقفين من المفاهيم حمالة الأوجه التي تختلف وتتغير دوالّها عموديا عبر الزمان وأفقيا بتباين المجتمعات، بل يلتبس التعريف في نفس الزمان وفي المجتمع الواحد من كاتب إلى آخر ، ويمكن قبول هذا التفسير نسبيا لأن المفهومين ينتميان إلى العلوم الإنسانية ومفاهيم و هذه العلوم مصطلحاتها حمالة أوجه وقيمية وليست علمية كمصطلحات العلوم الحقة .

إذا كان مفهوم المثقف يُحيل لمفهوم الثقافة وهذه غالبا تُكتسب اكتسابا ولا تورَث فإن المثقف ومنتَجه الثقافي لا ينفصلان عن الثقافة السائدة في المجتمع الذي ينتمي إليه ويعيش فيه. كما أن قيمة المثقف وعمله الثقافي تتأتى من قدرته على إثبات وجوده وتشكله كمثقف في مجتمعه ليس من خلال تميزه بلباسه وسلوكه فقط بل من خلال المامه المعرفي العميق ،دون تجاهل شريحة من المثقفين الذين وصلوا للعالمية وطغت عالميتهم على محليتهم، وحتى بالنسبة لهؤلاء فعالميتهم جاءت لاحقة لإثبات حضورهم أو بروز ملامح الإبداع الثقافي محليا، أو تأتت نتيجة لقدرتهم على التعبير عن ثقافتهم الوطنية بأدوات التعبير الثقافي المختلفة: شعر ، رواية ، فن...إلخ؛ وتذوق وقبول المجتمعات الأخرى لها، وخصوصا إن تُرجمت للغات الأجنبية.

ثالثا- الثقافة والمثقفون في المجتمعات العربية بين الالتباس والغياب:

أما بالنسبة لواقع المثقفين في مجتمعاتنا العربية وعلاقتهم بالسلطة فإن مكانة المثقفين وأدوارهم تراجعت كثيراً بتراجع الثقافة الوطنية الجامعة كما تم تسطيح مفهوم المثقف، حيث ارتمت( طغت) السياسة وتعدت على الثقافة، وألحقتها بها أو همشتها ، كما ارتمى رجال الدين وفقهاء السلطان والجماعات الإسلاموية على المجال الثقافي لدرجة مصادرته وحلول الداعية والفقيه محل المثقف.

وسادت ثقافة الخوف والشك والإقصاء أو رفض الآخر داخل المجتمع وحتى بين المثقفين أنفسهم، وتشظى المجال الثقافي بتشظي المجتمع طائفيا ومذهبيا وجهويا ،ولم يعد المثقف- في أغلب الأحيان- ضمير الأمة بمعناها ومدلولها الواسع والشامل ، بل تحول لضمير الطائفة الشاحذ سلاحه المعرفي والثقافي لتظهير لإظهار طائفته وثقافتها الفرعية أو المضادة ولو على حساب الوطن وثقافته الوطنية التي يُفترض أنها جامعة.

ومن جهة أخرى وفي حالة عدم ترسخ الدولة الوطنية وتوافق كل مكوناتها على عقد اجتماعي حول الثقافة الوطنية ، وفي حالة وجود فوضى وعدم استقرار وانقسام أو حرب أهلية وخصوصا إن كانت طائفية أو أثنية فإن المسألة الثقافية تُثار بشكل كبير، ويعيش المثقف ذاته أزمة كبيرة وتتمزق وشيجة الولاء ما بين ولاء للوطن والأمة حيث المثقف ضمير الأمة وثوابتها الكلية ،وولاء للطائفة التي يجد نفسه أسيرا لها بسبب المولد والظروف الاجتماعية، وفي هذه الحالة إما أن يتحول لمثقف طائفي وحزبي مما يفقده موقعه كمثقف ،أو يضطر للهجرة خارج الوطن وخارج بيئته الثقافية.

وأخيرا يجب إعادة النظر بمقولة أن المثقف الحقيقي يجب أن يكون دائما معارضا للسلطة وبعيدا عن السياسة، ويبقى الأمر رهنا بتعريف السلطة، ولكن عن أية سلطة نتحدث؟ وعن أية لحظة تاريخية تمر بها الأمة حيث يصبح المثقف في بعض المراحل والظروف سياسيا، وإن لم يشأ ذلك، كما أن العلاقة تتحدد انطلاقا من ضرب الثقافة الذي يشتغل عليه المثقف.

Ibrahemibrach1@gmail.com